آليات الترجمة والنظرية اللسانية: مقاربة في الاختلاف والتأويل.

الأستاذ: عبد الرزاق بن دحمان
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

ثمة إشارة نودّ تأكيدها في مجال الدرس اللساني، وتتتمثل في إشارة العالم اللغوي: " دوسوسير "

إلى أن المعنى في اللغة هو مجرد مسألة اختلاف ،كون الفكرة تتمفصل عبر مجموع المعاني التي ينتجها الدليل ،بمعنى أن المعنى ليس حاضرا كمعلم ثابت على مستوى الدليل، وهذا ما يجعل حالات الدليل إشارات مبعثرة تجد سلطتها بين الحضور و الغياب .

فمن عمق النظرية اللسانية تمحورت فاعلية الترجمة ضمن الدرس اللغوي المعاصر، فتجاوزت عملية نقل النصوص من مجال التوصيف اللغوي المباشر إلى مجال الكتابة كفعل وجودي أصبحت فيه الترجمة كتابة أولى بامتياز، " وهي نظرة لم تتغير كثيرا إلا مع الثورة اللغوية التي أحدثها (دوسوسير) في أوائل القرن العشرين ثم حديثا مع دراسات (رولان بارث) وأبحاث (نعوم تشومسكي) .. "(1).

فالدرس اللساني المعاصر أخرج اللغة من بأبآت التمثيل الفلسفي الرامي إلى تحديد الكلام، أو الكتابة بمرجعيات الإدراك الحسي للأشياء (نظرة أرسطو ,مثلا) ... ومن هذا الفهم العميق للمكون اللغوي تأثرت الترجمة بالفهم اللساني الحديث ، وذلك من خلال تأصيل فنيات النقل اللغوي لتكون متجذرة في لغة الأصل بكل أبعادها الحضارية والثقافية والإنسانية، فالمترجم في هذا المجال يعي جيدا مسألة هروب المعنى الذي يتصارع في ذهنه ,فهو مدرك جيدا أن النص المراد نقله يخفي هو أيضا نصوصا ولغات تكون حاضرة فيه، وبهذا الفهم تغدو كل النصوص والكتابات – بمعنى ما ترجمة .

هكذا تنطوي اللغة دائما على أكثر مما تقول ، وتتجاوز نفسها باستمرار (2) ،مما ما أخرج فعل الترجمة من الفهم الميتافيزيقي، إلى الفهم العلمي المعرفي ,فالمترجم في اشتغاله على النص لا يستحضر التقابلات اللغوية, بل يراجع وعيه وفكره من وراء فعل الكتابة كوجود، وممارسة ذاتية.

ومن هذا الطرح تقدّم الفكر اللغوي في مرحلة ما بعد اللسانيات، لتتحول الكتابة على يد منظري فلسفة الاختلاف والتأويل ، إلى سلطة معرفية تتجشر منها فيوضات المعرفة.

اللغة ومعضلة النقل:

حاولت اللسانيات الحديثة أن توسع من دائرة الاشتغال اللغوي ضمن مفاهيم الترجمة ، قصد تقديم معنى أصلي للنص المترجم ، ودلك عن طريق التحويل اللغوي المرتبط أساسا ، بالتباعد الثقافي والحضاري بين النصوص ذات الاختلاف الواسع ، ولاشك أن هذا الطرح قد استوعبته اللسانيات المعاصرة ,متمثلة أساسا في ظهور فلسفة التأويل ,في مرحلة ما بعد البنيوية ، فتنامت بذلك فلسفة النقد اللغوي والفلسفي على يد فلاسفة وباحثين لغويين ، كان لهم التأثير العميق في توجيه فعل الكتابة الأدبية المشتغلة على حركة الترجمة: أمثال: " دولوز " ولادميرال " ، و"غادمار " و " هايدغار " ، و"التوسار " .... من عمق التفكير اللساني اعتبرت اللسانيات الترجمة ، جهازا لغويا أمينا خادما للمعنى بصورة صادقة وأمينة

فإذا كانت اللغة في مستواها الكلامي العادي كنظام محكومة بعلاقة الاعتباط (بين الدال والمدلول) ، فإن تأسيس الكتابة ضمن فعل الترجمة لا يراعي هذا التباعد بين الدال والمدلول، فالمترجم في هدا الشأن لا يواجه المعنى كما ترسمه اللغة الأم ، ولكن يواجه سياقات ثقافية تحملها جملة الكلمات الموزعة في النص لأن الكاتب – المترجم – ينقل المعنى الذي يتجاوز علاقة الدال بالدليل ، وهذه نظرة " لم تتغير كثيرا إلا مع الثورة اللغوية التي أحدثها اللغوي السويسري " فيردنان دوسوسير " في أوائل القرن العشرين ثم حديثا مع أبحاث " رولان بارت " وأبحاث " تشومسكي " ... (3) .

يلامس الفيلسوف " هيدغار " حدود اللغة / الكتابة، بربط التعبير بالكينونة " والتي هي اللامُقال واللامحكي, حيث تتغذى كلماتنا ، أما اللغة فهي قدرة الإنسان على التعبير عن جوهر

الكينونة وفي الوقت ذاته عن كيان الإنسان .. " يواجه " هيدغار " الترجمة بتقسيمها إلى نوعين : ترجمة خارجة عن إطار التحكم اللغوي فتنفصل فيها مدلولات النص الأصلية عن معناها الجوهري في النص المكتوب وهنا تتجاوز اللغة السياقات النصية ، فتخرج عن دائرة التمثيل الإنساني , وترجمة تحويلية متحكمة في المعاني الأصلية، وهنا تسترجع اللغة وتستحضر وجود الأشياء ، كون اللغة هي المتكلمة وليس الإنسان.

ومن هذا المنظور المعرفي يرتكز هذا الباحث على فهم ألسني للوجود اللغوي، فاللغة لها وجودها المستقل.

ومن هذا المنحى تتموقع الترجمة كحالة تحويل، أساسه التأويل فتدخل اللغتان ضمن سياق التداخل والحوار ومن ثم تتصهر الكتابة وتتناغم عبر سلسلة حوار الثقافا ت ، فيتحول الوجود اللغوي إلى كتابة خاصة تشرك المتلقي ليكشف هو الآخر عن لغة آخر ، هي ثمر ة تلاقي اللغات ، ومن هنا تنفتح الترجمة فتتجاوز التأويل فتصنع الإنتاج الثقافي ,وأثناء عملية تحويل النص ، تتحول أيضا اللغة المترجمة، وهكذا تبرهن اللغة من جديد عن وجودها من خلال القدرة على ضخ المعنى في دوال وكلمات تنتمي لثقافات أخرى.

فلنأخذ توضيحا: la terre est bleue comme une orange

فالترجمة المحتملة لهذا التعبير المجازي: الأرض بزرقة البرتقالة. فالمعن لم يتحدد بعد لأن مستوى اللغة المترجمة يتعثر في منح معنى روحي وحاد لهذا التعبير، فتتصل اللغة كوجود بأنظمة القيم، فتخرج عن النص، وعن الدليل والمدلول فتبحث عن خلفية معرفية تشتغل على إشكالية "زرقة البرتقالة " فالعقل الإنساني يترك اللغة تسبح خارج النص فينتقل العقل من النص إلى مرجعيات ثقافية وحضارية، فتصبح زرقة البرتقالة مؤشرا ودليلا على فسادها، فالأرض فسدت كفساد البرتقالة، (كما يمكن أن تتجاوز الترجمة هذا الطرح وهذه المعاني , فتسبح في دلالات ثقافية أخرى، " فقد اعتبر دِرِيدَا المعنى مشاعا وغير ثابت وبدلك فلا مجال لفهم النص فهما نهائيا " (5).

بين النقل والتحويل تأخذ الترجمة مدارها المحتمل، انطلاقا من مقولة: إثبات المعنى والغرض. فقد ورد في الأثر العربي ما نقله " أبو حيان التوحيدي" في كتاب " الإمتاع والمؤانسة " من مناظرة بين النحوي: أبي سعيد السَّيرفي والمنطقي متى بن يونس" قال أبو

سعيد: ما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة اليونان إلى لغة أخرى سريالية ثم من هده إلى أخرى عربية ؟؟ قال متى: " يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني . وأخلصت الحقائق "، واضح من هذا الساق أن اللغة بإمكانها أن تحافظ على المكون الجماعي للمعنى، بصورة تجعل وجهة النظر متقاربة بين اللغتين، ولهذا حاولت اللسانيات التوليدية مع " تشومسكي " توسيع داءرة المقولات اللغوية بواسطة تقليب المعنى على مختلف الأوجه .

الاختلاف والتأويل:

تشتغل الترجمة على فعل التأويل، تأويل القراءة المنتجة للكتابة، فاللغة تمتد إلى النص المكتوب لتحيا فيه من جديد، فتغيير الشيء اللغوي من لسان إلى أخر لا يعني وضع لفظ أو استبداله بآخر ، بل الأمر يتجاوز ذلك بمرعاة مختلف السنن الثقافية للسان المترجم إليه، وهذا ما ذهب إليه الفيلسوف "هيدغار" كون الكلام المنطوق أو المكتوب داخل اللغة الأم، هو كلام في حاجة إلى تأويل ، فالترجمة هنا مسألة ضرورية، ومن هنا تغيب النظرة الأخلاقية أو الميتافيزيقية التي ألصقت بالترجمة (النقل الحرفي للمعنى)

اعتبرت النظرية اللسانية الحديثة اللغة مجموعة من الإشارات، المبنية على الاختلاف، فكل إشارة تأخذ موقعها من خلال التمايز أو التباعد، ومن هذه الطروحات اللسانية بنى " جاك دريدا" فكرة الاختلاف ، انطلاقا من السيرورة الزمانية القائمة على فكرة " المعنى المرتقب "، (منتظر) .

يرى (دريدا " أن الإختلاف تسرب إلى مفهوم الترجمة , والتي هي بنية اختلافية تظهر الفروق والتمفصلات بين الأفكار والحضارات الإنسانية , وعليه يتموقع الاختلاف كضرورة وحتمية تقتضيها عملية الترجمة.

ولا شك أن هذا الطرح قد عالجه من قبل , رولان بارث" في إقراره " أن وحدة النص ليست في أصله، ولكنها في القصد الذي يتجه إليه "(7) , فأصل المعنى في اللغة الأم يصبح معاني جديدة، وكأن المترجم يقتل المعنى الأصلي فيبعث فيه حياة أخرى , حياة متجددة . تمتدّ

إلى ما لا نهاية , هكذا هي إستراتيجية الاختلاف التي تبني الفوارق وتشيد استمرارية الخطاب المعرفي .

يقوم فعل الترجمة على خصوصية فعل القراءة الخاصة بالنص المكتوب , قصد نقله وإيصاله للقرّاء وذلك عن طريق التحويل الذي يتطلب الفهم والإفهام , وهذا ما نجده في طروحات "غادامير" حين أكد على فكرة " إيصال الفكرة إلى القارئ" , وذلك بواسطة الفهم الذي يحدثه التأويل , فحين تتقابل اللغتان تتداخل أنماط التفكير في حوارية ثقافية ,. وهذا من سمة الترجمة " فتأويل النص هو إنشاء خاص ذو طبيعة لغوية يتجدد به الأصل , ولذلك فالترجمة تعيد إنشاء النص الأصلي وتقوم على حوار بين عالمين لغويين يفضي إلى الفهم والتفاهم " (8)

إن مفاهيم التأويل، جعلت من الترجمة، كتابة تأويلية، " فغادمير "، وفي كتابه (الحقيقة والمنهج يؤكد على فكر ة جد هامة، وهي " أن اللغة ليست ما يقولها الإنسان بل ما يقال الإنسان بها ".

ولا شك أن هذه النظرة أسهمت في بناء حركية الترجمة من خلال المواصفات اللغوية وهدا بفضل تطور الدرس اللساني المعاصر الذي خلّص الترجمة من شكليات النقل والاستبدال اللغوي

فالترجمة من هذه الناحية , تقيد وعي الكاتب (المترجم) فتجعل منه أداة تحرك اللغة لتشتغل

على لغة أخرى . ومن هذا الاشتغال يولد المعنى ..

وفي الختام يمكن القول إن موضوع الترجمة موضوع متشعب وواسع المناحي، خصوصا إذا ارتبط بفلسفة اللغة ومدارسها المختلفة.

ولكي نقرّب المعنى أكثر نضرب المثال الآتي :جاء في نص "شارل بودلير"
Correspondances

Dans une ténébreuse et profonde unité

Vaste comme la nuit et comme la clarté

Les parfums les coueurs et les sons se répond dent

Comme de longs échos qui de loi se confondent t

ينظر أحد النقاد العرب إلى المقطوعة فيترجمها على هذا النحو:

في وحدة مظلمة عميقة

رحيبة كالليل، فسيحة كالضياء

تتجاوب العطور والألوان والأصوات

كأنها أصداء اختلطت من بعيد."

المترجم أضاف كلمة "فسيحة" كي يحافظ على الدلالة الخفية لتركيب السياق الشعري كما نلحظ الفعل "تتجاوب" ولم يقل تتراسل لما في هذا التعبير من رغبة نفسية حالمة عبر فيوضات اللحظة الشعرية، فقراءة المعنى في اللغة الأصلية يختلف عنه في اللغة المترجمة، فتحقق الشعرية سمح لنا بادراك العنصر المعرفي المخفي في أذهاننا والذي هو تشعب الحواس وتشويش الأفكار حين تأتي المعرفة الشعرية.

<u>هوامش الموضوع:</u>

1 /عمر كوش: أقلمة المفاهيم " تحولات المفهوم في ارتحاله. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط 1 2002، ص 15.

2/ ديفد وورد: الوجود الزمان السرد , فلسفة بول ريكور. تر: سعيد الغانمي. المركز الثقافي العربي ط 1 1999. ص 21.

3/ عمر كوش: اقلمة المفاهيم. م س ص 115.

4/ بشارة صانجي: مجلة الفكر العربي المعاصر . الاختيار البتنظيري والتفسيري عند هيدغار ع / 18– 19 1982 ص 52.

5/ خديجة غفيري: سلطة اللغة بين فعلي التأليف و التلقي .إفريقيا الشرق , ط 1 2012. ص 24

6/ أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ، تحقيق أحمد أمين , احمد الزين بيروت ص108 128
7/ رولان بارت: نقد وحقيقة، تر : منذر عياشي / مركز الإنماء الحضاري 1994. ص 24.
8/ أقلمة المفاهيم : عمر كوش . م س. ص 118.